محاضرة حول فريدريك هيجل :

لقد ظهر "فريدريك هيجل"G.W.F. Hegel(1770-1831) في صورة فيلسوف تشع منه تعاليم فلسفية جديدة بدأت تغذي الشعور التاريخي للفكر الأوروبي بمفاهيم وأفكار لها وزنها وثقلها الفلسفي، لكونها تحمل طموحا فكريا بعيد المدى، بحيث استطاعت أن تواجه تحديات عصور متباينة كل التباين وأن تجدد نفسها ويستغرق وجودها مدة طويلة في مناخ يشهد تموجات فلسفية واسعة، كانت مؤشرا على بروز تيارات فكرية متضاربة وتناقضات كثيرة، مكنت هذا الفكر أن يكيّف المفهوم الفلسفي القائم على الفكرة التي تسري في الروح الفردية وتجسد نضجها في مختلف الميادين الفنية والدينية والفلسفية، فما طبيعة الاستراتيجية الفلسفية التي تبناها هيجل؟

1 ـ الأساس الفلسفي الهيجيلي:

لم يكن فكر "هيجل" معزولا عن أحداث عصره، بل حاول قراءة الفكر الفلسفي قراءة تاريخية قائمة على عملية تتبع تطور الروح في وعيها وشعورها، فالمتأمل في الفلسفة الهيجلية، يجد أنها فلسفة كلية نسقية يترابط مجموع مفاهيمها في إطار جدلي يرتبط فيه المنطق بالتاريخ من خلال رابطة أنطولوجية لا تنفصم عراها، بحيث لا نستطيع أن نتناول أية فكرة أو موضوع من الموضوعات التي عالجتها هذه الفلسفة إلا من خلال النسق العام لفلسفته، التي تمتد عبر سلسلة من المراحل الفنية والدينية والفلسفية التي تتجلى فيها آثار مسيرة الروح، أما الذي يفكر في ماهيته من خلال المفاهيم فهو الفلسفة.

كان "هيجل" قد رأى أن الانشقاقات والانكسارات والتحولات الكبرى التي تمثلت في الانتقال من العصور الوسطى في أوروبا إلى العصور الحديثة، قد ولدت قلقا ذهنيا اعتبره هو مصدر الحاجة إلى الفلسفة التي ستقوم على تأويل هذه التحولات على ضوء الارتكاز على الخلفيات الفكرية والمفاهيم والتصورات التي تحرك هذا الوعي في معرفة المحنة والمعاناة التي تعرض لها.

يرى "هيجل" أنه لا المادة ولا الوعي البشري يمكن اعتباره أوليا، لأنه لا يمكن منطقيا استنتاج الوعي من المادة كما لا يمكن استنتاج المادة من الوعي الإنساني، وهذا الوعي يجب النظر إليه بوصفه حصيلة لمراحل تطورية سابقة تفضي بدورها إلى جوهر أوّلي مطلق؛ لكن هذا الجوهر الأولي المطلق لا ينظر إليه "هيجل" على أنه وحدة مطلقة للذاتي والموضوعي دون أي تمايز بينهما. إذ يمكن اعتبار

الفكر ماهية موضوعية مستقلة عن الإنسان وهو مصدر وأساس أوّلي لكل ما هو موجود، لأنه لا يمكن اعتبار الفكر نشاطا إنسانيا خالصا يمتلك استقلالية عن الواقع والوجود، بل يحيا داخل نظام معرفي واجتماعي مجهز بتأطير فلسفي.

يأتي هذا الثراء المعرفي في مسايرة أحداث العصر التي وصلت إليها حركة الأفكار الواعية التي لم ينقطع ضياؤها عن التحول الذي يسعى إلى الكشف عن ماهية الفكر، فهذا الفكر ينمو ويتطور على طريقة الجدل التي تتألف من ثلاثة مراحل هي: الموضوع ونقيضه والمركب منهما،" يميز "هيجل" بين الفكرة وبين التصور على أساس أن الفكرة، هي التحقق الكامل للتصور، إن الفكرة هي الوحدة المطلقة للتصور وللموضوعية، وهي الحق في ذاته ولذاته. الفكرة هي الحياة، هي الخير في المعارف والأفعال، وهي المعرفة الكلية المطلقة التي يصل إليها فكر الفيلسوف. إنها الحق حتى يعرف نفسه. ومن وجهة نظر الفكرة ((التصور)) يبدو مجرد لحظة تابعة، ومع ذلك فالتصور يظل دائما مبدأ الفكرة "[1].

على هذا النحو، يؤكد "هيجل" أن الفكر يغير وجوده إلى شكل مادة طبيعية وهي وجود آخر لهذا الفكر القائم موضوعيا والذي يسميه " بالفكرة المطلقة "؛ وفيها يكون العقل ليس ملكة خاصة بالإنسان، بل هو الأساس الأوّلي للعالم، ولذا فإن العالم يتطور ويحصل فيه نمو وتطور بناء على قوانين الفكر أو العقل، وبهذا يكون الفكر عنده هو الجوهر المطلق المستقل عن الإنسان والإنسانية للطبيعة والإنسان والتاريخ العالمي؛ وأن هذا الفكر كماهية جوهرية تقوم بنشاطها الواعي على المستوى الداخلي لهذا العالم الذي يتجلى في مختلف تنوعاته ومظاهره الوجودية.

2 ـ تأليه الفكر:

وبما أن "هيجل" يُؤَلِّهُ الفكر، فإنه مضطر إلى تأليف المفهوم، والمفهوم عنده بداية كل حياة وصورة خلاقة لا محدودة تنطوي على كل ما في المحتوى من غنى؛ ومصدرا لهذا المحتوى في الوقت ذاته، إذ يعارض في هذه الحالة النظرة المادية إلى المفهوم باعتباره شكلا أعلى يعكس الواقع الموضوعي، فإنه يقلب الأمور رأسا على عقب، فموقع الفكرة عنده ليس عكسا للوجود بل على النقيض من ذلك الوجود، فهو تجسيد للفكر، أما المفهوم فهو من إنجاز الفكر الإنساني، والفكرة تعتبر موضوعية، وبالتالي فهي تتوسط ترتيبا ما بين المفهوم والواقع الذي يمثله المفهوم في وحدة نسقية يتم فيها تجاوز

التعارض بين الذات والموضوع يكون اكتمالها على ضوء وجود علاقة وثيقة بينهما، فيصبح كل ما هو عقلي واقعي وكل ما هو واقعي عقلي ينم عن العلاقة القائمة بين الفلسفة والعلم، " فأي مجال من مجالات العلوم المتعددة اجتمعت له نظريات أساسية ومنهج نقدي، وبرهان تجريبي، فإنه يخرج عن الفلسفة ويستقل بنفسه"[1].

إن صورة العلم تتطور منذ نشأته فتصل إلى النقطة التي لا يسع الوعي بعدها أن يكمل. ذلك أن المفهوم سيتطابق مع الموضوع، والموضوع سيتطابق مع المفهوم، وفيها يقوم بالفحص الذاتي للوعي الذي سيتحتم عليه أن يتبع قواعده الخاصة على السؤال المتعلق بالتطابق بين الموضوع والطريقة التي توجد فيها هذه الذات بالنسبة إلى الوعي." إن "هيجل" ظل وفيا لديكارت فأبقى على الذات حتى وإن جعلها مطلقة، وهو لم يتجاوز عصر الميتافيزيقا التي تردّ الموجود إلى موضوع يوضع أمام الذات. فجعل من الوجود موجودا أسمى، هو الأساس المطلق لكل موجود، وجعل من هذا الموجود الأسمى فكرا ومعرفة مطلقة، والاسم الآخر لهذا الموجود الذي لم يزل حاضرا، ويصاحب عند حضوره كل فكر هو الوعي"[2].

3ـ تطور الوعي الفلسفي:

انتهى "هيجل" إلى هذه الفكرة التي ترجع العالم ككل إلى الروح التي تبقى مبثوثة ومتموضعة في كل شيء من أجل أن تعي نفسها، حيث تنتقل من الوعي الساذج إلى الوعي المطلق عبر التاريخ، ومن ثم تنحصر مهام الفلسفة في تصور ما هو كائن، وما هو كائن ليس إلا العقل نفسه، هذا العقل يريد أن يجعل كل شيء في قبضة الفكر على أساس أنه واضح ومعقول في جميع صوره وأشكاله، هذا التساؤل يرمي بكل ثقله في البحث على محتوى الفكر الذي انشغل به "هيجل"،" هل فكر هيجل فلسفة أم دين ؟ إذا نظرنا إلى العدد الهائل من التحليلات التي يقدّمها هيجل للمفاهيم وللتصورات وللأفكار، في تداخلها وتخارجها وتوسطها لوجدنا أنها فلسفة غارقة في التجريد والمذهبية ولكننا إذا نظرنا إلى مضمونها وإلى مسارها العام، وجدناها لا تفترق عن الدين المسيحي بوجه عام، وعن المسيحية بوجه خاص، حتى يمكن القول بأن فلسفة هيجل دين مقنع...والحقيقة أننا إذا نظرنا إلى تطور هيجل الفكري لوجدنا أن الدين هو نقطة البداية ونقطة النهاية فيه "[3].

بدأ "هيجل" يعي بصورة متنامية أهمية الفكرة التي يقودها الوعي، لكونها تملك قوة السريان في كل دواليب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية."وفي الواقع أن فلسفة هيجل تنزع أساسا نحو معارضة "الكوجيتو الديكارتي" الذي يقيم الذاتية من داخل الذاتية والذي يقرر ديكارت عن طريقه عبارته المشهورة : أنا أفكر إذن أنا موجود. ويعرض هيجل أيضا الذات التي تمثل الحقيقة الوحيدة والقوة الجامعة الخلاقة عند فختة بوصفها عامل العقل والإرادة معا وتناهض فلسفة هيجل كذلك أخلاق الذات المعزولة الباطنة عند كانط" [1].

4 ـ الديالكتيك:

ينقسم الديالكتيك عند "هيجل" إلى قسمين: ديالكتيك تاريخي، وديالكتيك وجودي (أنطولوجي) . النوع الأول يظهر في تطور الحياة والنظم: فبعض أشكال الحياة أو النظم ينطوي على تناقض باطن، لأنها محتوم عليها أن تتجنب الغرض الذي من أجله وضعت مثلا العلاقة بين السيد والعبيد، أو لأن من المحتوم عليها ان تولد نزاعاباطنا بين أحوال مختلفة مهمة على السواء من أجل تحقيق الغرض منها، كما هي الحال في المدينة اليونانية، فأمثال هذه الأشكال مقيض لها أن تزول لتحلّ محلها غيرها. وهذا الديالكتيك التاريخي يبدأ من القول بأن غرضاً ما يسعى إليه، وإن لم يحقق بعد والتنازع بين الغرض والواقع الفعلي يقود إلى تحطيم الواقع الفعلي وأحلال واقع آخر مكانه.

أما الديالكتيك الوجودي (الأنطولوجي) فيبدأ من قاعدة أن معيارا ما، نحدّده ببعض الخواص، وقد تحقق، وهو يتحرك خلال تصورات مختلفة لهذا المعيار نحو مزيد من الأشكال المناسبة. فمثلا بالنسبة إلى الوعي أو الشعور: نحن نبدأ من قاعدة أن هناك معرفة، وأن المعرفة انجاز. لكن معرفتنا عن هذا المعيار قاصرة واجمالية. فتتوسع فيها وننتقل من المعرفة الحسية إلى معرفة عقلية مقابلة لها، وهكذا باستمرار"[3].

5 ـ استيعاب الفن في الفلسفة :

ان الفن ينتهي إلى الدين ،لكن الدين بدوره ينتهي على الفلسفة باعتباره أقل مرتبة منها .اذا كان الفن نتاجا ذاتيا ،فيقارب المضمون الحقيقي بأشكال كثيرة منفصلة ،و الدين بدوره يتفرع الى فروع تبسط ذلك المضمون في صور عقلية يمكن تأملها .فإن الفلسفة تمتاز في كونها قادرة على الجمع بين الفن والدين ،بل وتوحيدهما في أبسط الرؤى الروحية ،ثم رفعها على مستوى الفكر الذي يعي ذاته .

يتناول هيغل موت الفن لا بالمعنى المجازي وإنما بمعنى تاريخي ثقافي محدد. موت بلا أمل للبعث من جديد ،فالروح لا تمشي نفس الدرب مرتين .والمطلق أو الفكرة هي الله نجدها جليلة سامية في الدين ،هي موضوع لتأمل حسي في الفن ،وصولا إلى كونها تدرك كتصور عقلي خالص كما في الفلسفة ،إذن الفن والدين محكوم عليهما في النسق الهيغيلي أن ينتقلا إلى الفلسفة .وموت الفن عند هيغل أمر يعود إلى جدل ميتافيزيقي ،أو كشف جدلي للمطلق ؛وهذه نتيجة تمليها الحتمية التصورية في نسقه المطلق (الجدل الميتافيزيقي).

في الأخير نخلص إلى القول، أن هيغل له الفضل الأكبر في ظهور علم الجمال بحيث أصبح الجمال الفني يعرف ،بأنه الفكرة حين تظهر وتلوح فتتحول الفكرة إلى جمال حين تظهر مباشرة للوعي في مظهر حسي بناء ،والنظر إلى الأعمال الفنية يكون كالنظر إلى الحقائق الإنسانية أو الطبيعية ؛على أنها ذات قيمة نسبية تعود إلى العصر الذي نشأت فيه .

من جانب آخر يربط هيغل الفن بتطور الوعي الإنساني ،لأنه يدرس كنشاط إنساني يعبر عن الحقيقة ويسعى إلى الإجابة عن سؤال هام وهو :كيف يمكن للفن أن يعبر عن الحقيقة ؟ لذلك فهو لا يقدم دراسة نظرية خالصة للفن ،وإنما يتجاوز هذا إلى تقديم دراسة تطبيقية لكل فن من الفنون و السمات الخاصة به ؛فتعكس هذه الدراسة النظم الفكرية المختلفة من فن ودين وفلسفة من حيث أصولها التاريخية في رصد وتشخيص الارتباط القائم بين الشكل والمضمون والصورة والمادة في العمل الفني دون إغفال معرفة كيفية تطور المضمون وانعكاس ذلك على تطور الشكل.

من هذه الوجهة، يقر هيغل بوجود علاقة وثيقة تربط الفن بالدين والفلسفة .فلقد لجأ الإنسان إلى الفن كوسيلة لوعي أسمى أفكار روحه واهتماماته وقد صبت الشعوب أرفع تصوراتها في نتاجات الفن ،وفي هذا الصدد يقول :"إذا بلغ الفن غايته فإنه لا يلبث أن يسهم مع الدين والحياة في تفسير المطلق وإلقاء الضوء على جوانبه وكذلك في إيضاح كل ما يتعلق بحقائق الروح و الأفكار أشد عمقا ."

إن التفلسف أمر طبيعي في الإنسان، وأن التفلسف الصحيح يستند إلى العقل والشك والنقد، وهو لا يقتصر على طرح المشكلات الفلسفية بل يسعى لإيجاد الحلول الممكنة لها، وهي الحلول التي تجسدت في المذاهب الفلسفية المختلفة التي واكبت التطورات الفلسفية التي بدأت تغزو بشكل كبير الأنساق المغلقة والعمل على تفجير كيانها من الداخل.

جاءت الفلسفة الهيجلية في عصر سيطرت فيه النزعة العلمية وتزايد نفوذ المد التجريبي الذي اجتاح بشكل صارخ المعاقل الفلسفية والميتافيزيقية التي أظهر فيها عدم الثقة بالفكر النظري، هذه الفكرة التي كان العلماء التجريبيون يروجون لتعاليمها وينظرون إلى المفاهيم على أنها مجرد مسميات ترمز إلى جملة من الوقائع المدركة حسيا (أي أن كل ما هو غير مدرك حسيا يرفض أو يكون عرضة للشك)، وقد كان موقف "هيجل" رافضا للحط من قيمة الفكر النظري، لكنه لم يواجه فكرهم بفهم علمي صحيح، بل بنظرية مثالية عن القوة الخارقة للمفاهيم؛ هي نظرية "الفكرة المطلقة" التي تجسد انضمام الواقع إلى الفكر.

المصادر والمراجع:

– عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.

– هيجل: موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، ط3، 2007.

-M. Heidegger : Hegel et son concept de l'expérience. In Chemins, Gallimard, 1980, p. 159.

–حسن حنفي: قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر.

(1) – عبد الفتاح الديدي: مجلة الفكر المعاصر، العدد67، الكويت، 1970.

3 – عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت– لبنان، ط1، 1984.